الفصل الأول

المرأة فى التاريخ

جولة فى الأفق التاريخى ..

لأن المدخل إلى موضوع البحث : (فضل تربية البنات) بصورة متكاملة يقتضينا ذلك ؛ ولا بُدَّ من وقفةٍ استطلاعية تتناول (المرأة فى التاريخ) ؛ كيف كان يُنظر إليها كذاتٍ إنسانيّة ؟ وكيف كان يُنظر إليها بالنسبة إلى الوظيفة الاجتماعية التى خُلقتْ لها ؟

ولا نقصد بالتاريخ : الامتداد الإنسانى الطويل إلى مبدأ البشرية فهذا أمر شاق وعسير ، وقد يخرج بنا عن إطار البحث وهَدفِهِ ولكننا نريد أنْ نستخلص الموقف والرؤية من عُهُودٍ قريبةٍ من الإسلام ، قبل الميلاد وبعده ، فهذا ألصقُ بالبحْث وأهمّ للدَّرْس .

فلقد كانت المرأة فى أوروبا ـ وفى العالم كُله ـ هملاً لا يُحْسبُ لهُ حساب ؛ وكان (العلماء) و (الفلاسفة) يتجادلون فى أمرها ويتساءلون :

ـ هل لها رُوحٌ أم ليس لها روح ؟.

ـ وإذا كان لها روح ! فهل هى رُوح إنسانيَّة أم حيوانية ؟

ـ وعلى فرْض أنها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعى و [الإنسانى] بالنسبة للرجُل هُو وضع الرقيق ؟ أم هو شىء أرفع قليلاً ؟.

تلك أسئلة لم تُبتدع ، ولم تستنبط استنباطاً ، ولم نستحدثها نحن تجنياً ولكنها جدَلٌ قام زمناً واحتدم ردحاً ، فكم من اجتماعٍ أقيم ومؤتمر عُقد ، ليُتساءَل فيه : هل المرأة إنسانٌ كالرجل ؟ وهل لها رُوح خالدة ، أو ليْس لها رُوح ولا خلود ؟

كان (الأثينيّون) ـ أصحاب الحضارات والمدنيات والفلسفات ـ يهدرون

منزلتها ولا يعتبرونها إنساناً بل حيواناً يُباع ويُشرى ، فسلبوها ـ لذلك ـ وانتزعوا منها أهليَّةَ التصرُّف ، فهى لا تَصْلُح لشيءٍ إلا لخدمة البيوت واستيلاد الأطفال ، وهى أيضاً ليست فى طُهْر الحيوان !!! بل هى : رجْس من عمل الشيْطان !!!.

وكانت عند بعض طوائف اليهود بمرتبة الخدم ، ولا ترثُ مع إخوتها الذكور ، ولأبيها أن يبيعها وهى طفلة قاصرة ودون سِنّ البلوغ .

وحتى فى الفترات القليلة التى استمتعتْ فيها المرأة بمركزٍ [اجتماعى مرمُوق] عند الأثينيين أو عند الرومانيين ، لم يكن ذلك مزيّة للمرأة كجنْسٍ وصِنْف ، وإنما كان لنساءٍ معدوداتٍ بصفتهن الشخصية ، أو لنساء العاصِمَة (إسْبَرْطة) أو (روما) بوصفِهنَّ [زينةً] للمجالس ، و [أداةً] من أدوات التَرف التى يحرص الأغنياء والمترفون على إبرازها زهْواً وإعجاباً ، ولكنها ـ أى المرأة ـ لم تكُنْ قطّ موضع الاحترام الحقيقىّ كمخلوقٍ إنسانى جديرٍ بذاتية أن يكُونَ له كرامة ، بصرف النظر عن الشهوات التى تحببه لنفس الرجُل .

وظل الوضع كذلك فى عهود الرّق والإقطاع فى أوروبا ـ من بعد الميلاد بأجيال ـ والمرأة فى جهالتها تُذَلَّل حيناً تدليل الترف والشهوة ، وتُهْمل حيناً كالحيوانات التى تأكل وتَشرب وتَحْمِل وتَلِد ، وتَعمل ليْل نهار !!

وهذا هو « ترتوليانوس »[1] ـ ويلقَّب بـ « ترْتليان » ؛ يقول فى موعظةٍ له : [أما تعلمنَّ أن كُلاً منكُنّ حوّاء ؟ إن حكم الله على جنسكُنَّ لا يزال قائماً فى هذا العصر ، والجريمة بحكم الضرورة لا تزال قائمةً ...، أنتُنَّ باب الشيطان ...، أنتُنَّ الآكلات من الشجرة ...، أنتُنّ أوّل من خالف الشريعة الإلهية ..!!! أنتُن اللاتى هدمتُنَّ صورة الله بمثْل هذه السُّهولة !!!].

إنها فى نظره ونظر أمثاله (مطية الشيطان) و (مركب المعصية) ؛

---

(١) (١٦٠ ـ ٢٤٥م) علّامة مسيحى من كبار الكتبة المحامين عن الديانة المسيحية ضدّ الوثنيّة ، ولكنه انحاز إلى مذهب « مونتانوش » (المنجد) .

و (العقرب الذى لا يتردَّدُ قطُّ عن لدغ أى إنسان) و (يجبُ أن تُمنع من الضحك والكلام لأنها أُحْبُولَةُ الشيطان ، وبها يُغرى بالخطيئة والمعصية) .

وفى عام (٥٨٦ م) عُقد فى بعض الولايات الفرنسية مؤتمر أعاد النظر فى تلك القواعد والمقررات الاجتماعية أو البيْتية ؛ وانتهى بأن المرأة إنسان ، وليست حيواناً ، إلا أنها خُلِقَتْ للاستخدام فى مصالح الرجُل .

ويبدو لنا من خلال هذا الاستقراء الوجيز ، والجولة السريعة فى الأفق التاريخى ، أن المرأة كعنصر بشرى إنسانى ، على أهميّته فى تكوين (الخلية الاجتماعية) ، لم تَحظ بالنَّظرة السليمة أو إدراك قيمتها ، ثم آحتوائها فى ركيزة البناء الأُسرىّ والأُممىّ ؛ بل ظلتْ فى متاهات التلذُّذ بها آناً والاستمتاع والتسخير آناً آخر ، أوْ مباءَةً لاستفراغ الشهوة وقضاء اللبانة ومَفْرخاً لإنجاب الأولاد ، بنين وبنات ... ! دون الإحساس بأُمومتها ، أو محْوريّتها التى تستقْطب التكْوين فى الأبناء ، عطفاً ورعايةً وحناناً ، وتوجيهاً وتربيةً وهداية ..!

ولقد كان هذا ـ ولا شك ـ سبباً مهماً وجوهريّاً فى عدم ديمومة تلك الأمم وحياتها فترة زمنيّة طويلة ، ثم آنهيارها وآنزوائها فى جُحور الزّمن والتاريخ .

إن خلل التقدير السليم لكينونة المرأة ، أفقد هذه المجتمعات طوعاً أوْ كرْهاً ـ قُدرتها على رسوخ أقدامها ، فآهتزتْ وتزلزلتْ ، ثم تهاوتْ ، ولم يبْق لها إلّا الذكْرى .

من هُنا ...، من تقدير القيمة الإنسانية للمرأة ، وأهمية دورها ووظيفتها فى المجتمع ـ أى مجتمع ـ تنشأ الضرورة فى حُسْن تربيتها وتوجيهها ، لتؤدّى رسالتها على أكمل وجْهٍ وأتمّه .

كما يبدو لنا من خلال الاستقراء أيْضاً أن النظرة الدّينية المسيحيَّة للمرأة ، الناشئة عن إرهاصاتِ التّوراة (العهْد القديم) ، وآفتراءات المحرِّفين لِلْكلم عن مواضعه فيها ، قد تبلْورت فى قالبٍ من الازدراءِ والمهانةِ للمرأة ... .

تلك النظرة التى ظلت تتقَلَّب فى أدوارٍ شَتّى ، بيْن شدٍّ وجذب ، وتَشَنُّج وتحلُّل ، طوال ستّةِ قرونٍ ، حتى استقرتْ عند قاعدة : (أن المرأة إنسان وليست

حيواناً !!! . لكنها خُلقت للاستخدام فى مصالح الرَّجُل) .

وهذه النظرة على الرَّغم من سلبيَّتها وضعفها ، اعتُبرت فى حينها نوعاً من الانتصار ، وآستواءً على الصراط الإنسانى السوىِّ ، فى إنصاف هذا المخلُوق ، والكائن الحىّ .

لكن عُقدة « حواء » الآكلة من الشجرة .. فى رمْزيةٍ للخطيئة الأصليّة ، ما تزال هى الأساس فى العقيدة اللاهوتيَّة المسيحيّة ، وعلى مدارها كان الفداء والصلْب والغُفْران ... وما « الرهبانية » إلا صُوَر التطهُّر ....، ابتُدعتْ للتكْفير !!!.

وعليْه ، فإنَّ وجهة النَّظر التربويَّة المسيحيّة ، بالنسبة للمرأة ، ـ إنْ وُجدَتْ ـ !!، لا بُدَّ وأنْ تَحْمل فى طياتها ومضامينها كُلّ تلك المعانى ، وترتكز أساساً على الخطيئة الأصليَّة والترهيب مِنْها ؛ دون أن يكون لها بُعْد اجتماعى إنسانىّ ، عميق وشامل .

ونحن ، لسنا فى صَدَد مناقشةٍ أساسيةٍ وعامة للنظر المسيحية إلى المرأة ، ولكنّا تطرَّقْنا إليها من حيث الضرورة ، الموضوعية ، لنقارنها وغيرها من النّظرات التاريخية ، وثنيَّةً كانت أو غَيْر ذلك ، بالنظرة الإسلامية من ناحية القيمة والأسلوب ، والتى تعتبر لدى المنصفين من المفكرين والباحثين انقلاباً حضارياً ، اجْتثَّ كُلّ افتئاتٍ على (المرأة) كإنسان ، أو كوظيفةٍ اجتماعيّة هى الأُولى والأهم ..، ولوْ أن كثيراً من المسلمين ـ حتى يومنا هذا ـ لم يُدْركوا بعقولهم وشعورهم الوجدانى أبعاد ذلك الانقلاب !!!، وما زالوا حتى عصرنا الحاضر مفتونين بالوهم الخادع ، إمّا جهْلاً أوْ إمَّعِيَّةً .

المرأة فى جاهليَّة العَرَب

كانت المرأةُ فى جاهليّة العرب زريَّةً مُهانة ، فِى الأُسرةِ والمجتمع ، طفلةً وشابّة ، لا حقَّ لها ولا كرامة ، لا يُعْتَدُّ بها فى رأى ولا وُجُود ، حلْس[1] الخِذْر

(١) الحلْس : ما يُفرش من بسط وغيرها فى أرض البيْت .

والبُيُوت ، استعبدها الرجالُ فى ذلّةٍ وآمتهان ؛ إن سألت لا تُجاب ، وإن آحتيج إليها فلِلسَّقى والاحتطاب والتقاط النوى وتغذية الكلاب ، فإن تسامتْ فلإِ براد غُلة الشهوات فى آزوارٍ ونظرات شزراء .

يوم خروجها للدُّنيا يوْم تَسود فيه الوجوه وتغتاظ فيه النفوس فى حيرةٍ واضطراب ، أتُمسكُ على هُونٍ أم تُدسُّ فى التَّراب .

بُشرى البشير بها سُخْط وإغضاب ، وبُشراها هى الدَّفْن حيَّةً فى التَّراب ؛ عقول فارقها رُشْدها لطول عَهْدها بنُور السماء وهدى الأنبياء ...، رجال صنعتهم الوثنية ، وربَّتهم الكهانة ، فغَمَّ صفاءُ أصُولها فأصبحت فصاحة ألسنتها وكرم أيديها وشجاعة أبدانها بُروقاً تومض ولا تُضىء ، وتُرعد ولا تُمْطر .

قال الله تعالى :

﴿ وإذا بُشِّر أحَدُهُم بالأُنثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوداً وهُو كَظِيم ، يتوارى من القَوْم من سُوءِ ما بُشِّر بِهِ أيُمْسكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّه فى التُراب ألا ساءَ ما يحكُمُون ﴾ [سورة النحل : ٥٨ ـ ٥٩] .

وقال جل شأنه :

﴿ وإذا المَوْءودةُ سُئِلت بأيِ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [سورة التكوير : ٨ ـ ٩] .

ويُفسّر « قتادة » هذا فيقول :

(فكان أحَدُهُم يَغذو كَلْبَه ويَئِدُ ابْنَتَهُ)[1] ؛ ويفَسّره السدّى أيضاً فيقول : (كانت العربُ يقتلون ما وُلد لهُم من جارية فيدسُّونها فى التراب وهى حية)[2] .

ويصف أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ـ رضى الله عنه ـ عرب الجاهليّة فى أسى واكتئاب فيقول :

(كُنا فى الجاهلية لا نعتدُّ بالنساء ، ولا نُدخِلُهُنَّ فى شىء من أمورنا ، بل كُنّا ونحن بمكّة لا يُكلِّم أحدنا امرأتَهُ ، إذا كانت له حاجة سَفَعَ برجليْها ... فقضى منها حاجتَهُ ، فلما جاء الله بالإسلام أنزلهُنَّ حيث أنزلهُنَّ ، وجعل لهُنَّ حقاً)[3] .

(١ ، ٢) الدر المنثور (جـ ٤) (ص ١٢١) .

(٣) كنز العمال (جـ ١) (ق ـ ٤٦٧٤ ـ ٤٦٧٩) .

وكان الوأد عِنْدهم لِأَسْباب :

١ ـ خشية الوقوع فى العار ، إذا شذّت أخلاقها ، وارتكبت السوء !!؟.

٢ ـ إذا وقعت فى السَّبى ، وأخذها العدُوُّ عنْوةً ، فأصبحت فريسةً بيْن يديْه .

٣ ـ خشية الفقْر والإملاق .

ويُروى [أن « قيس بن عاصم المنْقرىّ » كان يحدِّثُ بيْن يدى النبىِّ « ﷺ » أنَّه وَأَدَ من بناتِهِ اثنتىْ عشرة فى الجاهلية ، فقال له ﷺ : « **من لا يرْحَم لا يُرْحم** » . ثم أمره أن يُعْتِقَ بكُلِّ واحدةٍ مِنْهنَّ جارية مؤمنة] .

فمن خلال هذه الملامح التى تُصَوِّر واقع (مكانة) المرأة فى جاهليةِ العرب ، نُدْرك إلى أىِّ مدى انحطّ قَدْرها وامتهنتْ إنسانيَّتُها وأُهدرتْ كرامتها ، وجمحت الجاهليّةُ بالمجتمع العربىّ ، فَشَذَّ عن سواء السَّبيل ، وانطلق يخبط فى مهامه الحياة ودروبها خبط عشواء ؛ حتى استنقذتْه أيدى العناية الإلهية برسالة الإسلام ونبُوَّةِ «محمد » ﷺ ، يقول الله تعالى :

﴿ واذْكروا نِعمَةَ الله عَلَيْكُم إذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بيْن قلوبكم فَأَصْبَحتُم بنعمته إخواناً وكُنتُم على شفا حُفْرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يُبَيِّنُ الله لكُم آياتِهِ لعلكُم تهتدون ﴾[1] .

ولعلَّ فيما قاله أمير المؤمنين «الفاروق » ـ رضى الله عنه ـ بشأْن النساء وجاهلية العرب ، أصدق ما يشهد لذلك الواقع المرير .

يقول ـ رضى الله عنه ـ : (كُنّا فى الجاهلية لا نَعْتَدُّ بالنِّساء ...) ، ففى هذه العبارة ـ على وجازتها ـ من الإطلاق والعُموم ما يبين بصورة شاملة إهدار المكانة البشرية والإنسانية للمرأة ، والإهمال التام لمقامها وقيمتها ، وشَلِّ إرادتها ، وتعطيل الفكر والشعور عندها .

ثُمَّ يأخذ ـ رضى الله عنه ـ فى التفصيل فيقول :

(.... ولا ندخلهن فى شىء من أمورنا) .

وهنا تتضح الصورة الحياتية للحجر الذى كانت تفرضه الجاهليَّةُ على وظيفة المرأة الاجتماعية فى الشئون الأسريَّة ، فلا مجال للمشاركة فى الرأى أو إبداء المشورة ، أو إظهار النُّصْح ، حتّى فى الأمور التى تقع مسؤوليتها على عاتقها ؛ أو حتى فى الأمور التى تتعلّق بها مباشرةً ــ!!! فالرَّجُل ربُّ البيْت وسيده ، رأيُهُ النافذ فى تسلُّطٍ مُطلق ؛...

إن كثيراً من الأوضاع العائلية ــ تحت سقْف البيت ــ خصوصاً ما يدور منها حوْل البنات ، فى مختلف شئون حياتهن ، تفْترض أن يكون للزوْجة رأى ، لأنها من حيث الموقع والتجربة أدرى من الزوْج ... وأعلم ؛ غير أنها يُكمَّمُ فوها ويُعطَّل رأيها ولا يُسمح لها بقوْل .

أضِفْ إلى ذلك شخصيّتها وما يتعلق بها ؛ إذ حرَمها العُرف الجاهلى وتقليدُهُ الضال أنْ تَرِثَ ــ مثلاً ــ ؛ وتأخذ نصيبها مما ترك الوالدان والأقربون ؛ أو أن تتصرّف بحُريَّةٍ فيما ملكتْ أو تَمْلك ؛ .

وأيْضاً ... فإن الأمر قد تجاوز هذا الحدّ من إعدام شخصيتها إلى درجة آعتبارها (شيئاً) من المخلفات والمتروكات ، فتُوَرَّثُ كالمتاع !!؟.

كما أنَّه كانَ للزَّوج ــ المستبدّ ــ أنْ يُطلّقها ويستعيدها عشرات المرات ، فى استمتاعٍ جِنْسى مطلق ، دون أدنى آعتبارٍ لبشريتها وإنسانيّتها أو المشاركة فى المسيرة الحياتية .. .

ونتساءَل : أيْن المودَّة والرحْمة ؟؟ وأيْن كيْنونة كُلٍّ منهما لباساً للآخر ، والانصهار التام فى بوتقةِ الوحدةِ النفسيّة والبدنية ، وذوُبِ الحُبّ !!؟.

أين كلّ ذلك من قوْل « عُمر » ــ رضى الله عنه :

(... إذا كانت لهُ ــ أى لأحد الجاهليّين ــ حاجة سَفَعَ بِرِجْليْها ...، فقضى منها حاجتَهُ) .

إنها مباءَةُ آستفْراغ ، فى حيوانية بهيميّة مَحْضة !!.

يقول « غوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » ــ (ص ٤٠٦) :

(كان الأغارقة (الإغريق) ، على العموم ، يعدّون النساء من المخلوقات المنحطة التى لا تنفع لغير دوام النّسْل وتدبير المنزل ، فإذا وضعت المرأةُ ولداً دميماً قَضَوا عليها) ومن ذلك قول « مِسْيُو ترُو بلُنْغ » : « كانت المرأة السيئة الحظّ التى لا تضع فى (إسبرطة) ولداً قويّاً صالحاً للجُنديّةِ تُقتَل » وقال : « كانت المرأة الولود تُؤْخذ من زوْجها بطريق العارية لِتَلِدَ للوطن أولاداً من رجُل آخر » ؛ ولم يَنَلْ حُظْوةً من نساء الإغريق فى دوْر ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى اللاتى كُنَّ وحْدَهن على شىء من التبرج) .

وكان جميع قدماء المشترعين يُبدون مثل تلك القسوة على المرأة ، ومن ذلك قوْل شرائع « الهندوس » : (ليس المصير المقدّر والريح والموت والجحيم والسُّم والأفاعى أسْوأ من المرأة) .

ولم تكُن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهنْد ، ومن ذلك قوْل سِفْر الجامعة : (إن المرأة أمَرُّ من الموت) وإن (الصالح أمام الله ينجو منها ...، رجُلاً واحداً بيْن ألْفٍ وَجَدْتُ ، أما امرأةً فبيْن كُلِّ أولئك لم أجد) .

وليست أمثالُ مختلف الأُمَم أكثر اعتدالاً ، فالمثل الصينى يقول : (أنْصِتْ لزوْجَتِكَ ولا تُصَدِّقْها) والمثل الروسى يقول : (لا تجدُ فى كُلِّ عشْر نِسْوة غير روح واحدة) . والمثل الإيطالى يقول : (المِهْماز للفرس الجواد ، والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة) والمثل الإسبانى يقول : (احْذر المرأة الفاسدة ولا تركنْ إلى المرأة الفاضلة) .

وتَعدُّ جميع الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأةَ من فصيلة الإماء أو الصبيان ، ومن ذلك قوْل شريعة « مَنُو » :

(تخضع المرأة فى طفولتها لأبيها ، وفى شبابها لزوْجها ، وفى تأيُّمها لأبنائها إذا كان لها أبناء ، وإلّا فإنها تخضع لأقرباء بعلها ، أى لا يجوز ترك أمرها لها) .

ويقرب من هذا ما ورد فى شرائع اليونان والرومان ، فقد كان سُلْطان الرجُل فى (رومة) على زوجته مطلقاً ، وكانت تُعَدُّ أمَةً لا قيمة لها فى المجتمع ، ولم يكن لها قاض سوى زوجها الذى بيده حقّ حياتها وحقّ موْتها ، ولم تعامل الشريعة اليونانية المرأة بأحْسن من هذا ، وهى لم تعترف بأى حقّ ، ولا بحق الميراث

الوظيفة الاجتماعية

ماذا نعنى بالوظيفة الاجتماعية ؟

قد تتباين الآراء والأقوال حول هذا الموضوع بسبب المنطلقات والمرتكزات الفكرية والثقافية والدراسات العلمية ، والاستنتاجات التى حصَّلها الإنسان عبر القرون والأجيال ، سواء من ناحية الاستقراء والتجربة ، أو من ناحية الدراسة النظرية .

ومن هنا كان جُموح النظرة الموضوعية عن الصراط السوى ، وابتعادها عن الحقيقة الأساسية ، وآختلال الميزان ، وفقدان المرأة لوظيفتها الاجتماعية الأساسية التى خُلِقَتْ لها ، وهيَّأتها لها القُدْرة الإلهيّة ، ويدُ العناية الربانية .

نعنى بالوظيفة الاجتماعية : المسئولية الحياتية فى تكوين الخليَّة الأولى .

وهذا هو مدخلنا إلى تقْيم فضيلة التربية للبنات ، لأنهنَّ الروّاد ، وعليهنَّ مدار السلامة والنجاح ، أو الضلال والفشل ، من إطار البيْت والأسْرة ، إلى ساحة وميدان المجتمع والإنسانية !!.

ومن عجبٍ أن يُسمّى الضلال الفكرىُّ وزيْغ النظر فى إزاحة المرأة عن وظيفتها ، وإقالتها فى منصبها الحياتى ، والتحريش بينها وبين الحق الأساسى ، وإغرائها بشراك الحقوق الوهمية ...، من عجبٍ أن يسمى ذلك تَقدماً وتحُرراً !!!.

إنّه فعلاً انفلات من ضوابط المسئولية ، وتحلل من واجباتها ... ينعكس بالضرورة المنطقية على كيان الخليَّة شللاً وفشلاً ؛ وإن من المكابرة والمعاندة للحق أن نقول غير ذلك مع ما نشاهده من واقعٍ هُو أصْدَق دليل .

والتقدميَّةُ !!! ليستْ شعاراً أجوف نسترخص به عقول الناس ووجداناتهم ، ونَسْتقْطب تَجمعاتهم فى مسيرة غوغائية ، تحطم وتدمّر بلا وعْى ولا بصيرة ، ولكنها ـ بالفعل وبالحقيقة ـ تأكيدٌ جازم حازم من خلال النظام والقانون على

إنسانية الإنسان وسعادته ، فردا ومجتمعا ، على مدى الأيام والأعوام و ... القرون .

يقول الأستاذ « محمد قطب » فى كتابه : (التطور والثبات) ـ (ص ٥٨) :

[وتركّزت الفتنة (فتنة داروين وفرويْد ودُرْكايم) كلها فى « تحرير المرأة » .

حقاً لقد كان هذا العصر (عصر جاهلية القرن العشرين) هو عصر تحرير المرأة !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل فى الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأُمم كلها خيْر من « تحرير » المرأة ، أى إخراجها إلى الطريق فتنة للرجل لكى تفسد أخلاقه وتنْهار .

ينبغى بأى ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق ...

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادى ..

تخرج بحجة ممارسة حقها فى الحياة ..

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..

تخرج (للاستمتاع)!!

المهم أن (تخرج) ...، ولكن أهم من ذلك أن تخرج فى صورة إغراء ... إنها إن خرجت تتعلّم ، أو تعمل ، أو تمارس حقها فى الحياة ، وهى محتشمة متحفظة ، محافظة على أخلاقها وعلى طبيعتها (المنزليّة) بمعنى الرغبة فى (الاستقرار) فى أسرةٍ حين تسنح الظروف ...، فلا فائدة إذن من كل (التعب) الذى تعبْناه فى إفساد البشرية .

ينبغى أن (تخرج) فى صورةٍ (تفْتن) الرجل وتُغْريه ..، وإلا فما الفائدة ؟

ولكن كيف السبيل ؟

السبيل هو الدعوة !.

يكتب الكُتّاب .. ويكتب الصحفيون ... ويكتب القصاصون ..

السبيل هو (السينما)!.

تمثّل الأفلام الداعرة العارية ، الداعية إلى الفساد ..

السبيل هو الإذاعة والتلفزيون (على التوالى) .

السبيل هو بيوت الأزياء ..

السبيل هو صناعة أدوات الزينة ..

السبيل ـ بل كل سبيل ـ هو إيجاد صورة من (الحياة الاجتماعية) لا تستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية ـ بهجة المجتمع ـ وإيجاد تصوُّر للحياة لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية (لتشارك) الرجل فى حمْل الأعباء ، وإيجاد (واقع عملى) لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعى من الحياة .

ووُجد كل ذلك بالفعل !!.

واستراحت القوى التى تعمل لإفساد البشرية ... وطلبت المزيد .

وجاء المزيد ـ قصْداً أم عرضاً ؟ ـ بالحربيْن العالميتين .

قُتل فى الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب ، وفى الثانية نحو أربعين ، ووُجدت بِعَدَدِهم (أُسَر) بلا عائل ، ونساء بلا رجال ..!!.

و (خرجت) المرأة ـ راضية أم مكرهة ـ تعمل ...، وتبحث عن الجنس ...، وحدث مزيد من (التحرُّر) ... من انحلال الأخلاق .

وصار (الروتين) العادى فى الحياة الغربية أن تعمل كل فتاةٍ ، وأن يكُون لها صديق ، أى عشيق ، (Boy Friend) تمارس معه نشاط الجنس ، كاملاً فى أغلب الأحيان ، (روتين) عادىٌّ لا يستنكر ...، لا يفكر أحد فى استنكاره على الإطلاق إلا ... المجانين ، الذين يظنون أنه يوجد دين!! أو أخلاق!! أو تقاليد!!.

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون ...، الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى (أوْ ما سلف) ؛ الذين يحجبون عن أعينهم النور ، الذين يريدون (إرجاع) الساعة إلى الوراء ...] ! . هـ .

إن هذا (الخروج) ـ طوْعاً أو كرْهاً ـ تحت ضغط العوامل والظروف ، أو

بسبب التجاذب النفسىّ والحسىّ هو الذى أدى فى الماضى ، ويؤدى فى الحاضر ، إلى (الانفلات) من مسئولية الوظيفة الاجتماعية الأساسية للمرأة ، وفقدان (الخليةِ) عُنْصر بقائها واستمرارها ، وتضعضع المجتمع ، وضياع الإنسانية ، بالتدرج والتتابُع ... .

إن (التيه) الذى عانى مِنْه (بنو إسرائيل) طوال أربعين عاماً فى (سيناء) ، بسبب من تنكرهم للإرادة الخالقة وناموسها الضابط ..، هذا (التيه) ينعكس فى ذواتهم وأعماق نفوسهم وأجيالهم ، تاريخيّاً ، (حقْداً) مدمِّراً على الإنسانية كلها ، والبشرية قاطبةً ، فلا بُدَّ من الانتقام من الله تعالى فى خلْقِهِ وعبادِهِ ، بتيهٍ أكبر وأخطر !!!.

ولقد سرْبلُوا دعاويهم بجلباب (العلْم) لتكون مستساغةً مقبولة ، بل مطلوبة يُسْعى إليها ويُقْصد !!.

وزيّنوها بدعْوى (التَّحرُّر) ...، لأن الحرية فى معناها الإنسانى أسْمى ما يحرص عليه الفرْد ، وكذلك المجتمع .

ولكن أيَّة حُرِّيةٍ ؟ وأىُّ تحرُّر ؟.

الحريّةُ (المطلقة) ، بِكُلّ أبعادها اللامسؤولة ... والفوْضويّة ...، والتى تؤدى ـ حتماً ـ إلى التدمير للذات والجماعة .

ونعود إلى الوظيفة الاجتماعية ...

لأننا نحرص على الأصالة الإنسانيّة ومقامها فى (كيان) المرأة ، ودوْرها فى الحياة .

يقول الله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زوْجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ [النساء : ١] .

ويقول سبحانه :

﴿ ومِنْ آياتِهِ أنْ خلَق لكم من أنْفُسِكُم أزْواجًا لِتسْكُنُوا إليْها وجعل بَيْنكم

مودَّةً ورَحْمَةً إنَ فى ذلك لآياتٍ لقوْمٍ يتفكَّرون ﴾ [الروم : ٢١] .

فى موضوع الآية الأولى يقول الأستاذ « محمد قطب » فى كتابه (التطور والثبات) (ص ١٧٨) :

[إنه لَلَوْنٌ من الإعجاز أن تجتمع القضيَّةُ هكذا ، أو القضايا الأربع ، بهذا التتابع السَّهْل البسيط ، فى آيةٍ واحدةٍ معدودة الكلمات .

آية واحدة تقص فى إيجاز مُعْجز كُلَّ تاريخ البشرية ..

وتجىء آيات أُخرى كثيرة فى القرآن فتفصّل القصة تفصيلاً وتزيدها بياناً ..

١ ـ قضيّة الربوبية ، ٢ ـ قضية وحدة الإنسانية ، ٣ ـ قضية وحدة الجنسين ، ٤ ـ قضية المجتمع البشرى .

أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذى تعيش فى داخله البشرية ..

﴿ اتّقوا ربَّكم الذى خلقكم ... ﴾ قضيَّةُ الربوبية والخلْق ؛ الله هو الخالق ؛ قضيَّةٌ أزليّة ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثَمَّ يترتب عليها تقوى الله ، فتنشأ القضيّة الأولى فى حياة الإنسان : قضيَّة العقيدة .

﴿ من نَفْسٍ واحدة .. ﴾ قضيّة الإنسانية الناشئة من نفس واحدة ، من أصْلٍ واحدٍ مُشْترك ، من كيانٍ واحدٍ يضمّها جميعاً ، قضيّة ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثَم يترتب عليها أُخُوَّة البشرية .

﴿ وخَلَق منها زَوْجَها ... ﴾ قضيَّةُ الجنسين : الرجل والمرأة ، أحدهما من الآخر ، فالمرأة من ذات النفس التى هى الرجل ، قضية ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثَمَّ يترتب عليها (المساواة) الإنسانية بيْن الجنسيْن ، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسيْن .

﴿ **وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ...** ﴾ قضيّة المجتمع المتكوّن من الأفراد ، الناشئين من نفسٍ واحدة ، والذين هم إخوة فى الإنسانية ، قضيّةٌ ثابتة لا تغيّرها كل تطورات التاريخ ، ولا تُفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ، ومن ثم يترتّب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق : الأُخوّة ، ووحدة النشأة ، ووحدة النَّفْس البشرية] اهـ .

ونحن إذ نَهتمُّنا ـ من الناحية الإيمانية العقيدية ، والتشريع السلوكى ـ كُلّ تلك القضايا جُمْلةً ، يهمُّنا منها على التَّفْصيل القضيّة التى تتعلّق بالجنسين : المرأة والرَّجُل ، وكونهما من نَفْسٍ واحدة ، ثم ما يترتّب على التنوُّع الجنْسِى من وظيفةٍ اجتماعية حياتية تتعلّق بكُلٍّ منْهُما ... .

إن الزوجيْن ـ الرجل والمرأة ـ من (نفْسٍ) واحدة ، والإشارة إلى النفس ذات دلالةٍ لا تخفى ، إن المشاركة ليست فى النوْع الإنسانى فقط ، ولكنها أخص من ذلك كثيراً ، إنها المشاركة فى (النفس) ؛ النفس الواحدة ...، ومن ثَمَّ يتشاركان فى الكيان الإنسانى الداخلىّ الذى تشير إليه لفظة (النفس) ، كما يتشاركان فى الإطار الخارجىّ للإنسان .

يقول تعالى : ﴿ **فاستجاب لهُمْ ربُّهم أنّى لا أُضيعُ عَمَل عاملٍ مِنْكُم من ذكرٍ أوْ أُنثى بعضُكم من بعض** ﴾[1] متداخليْن ممتزجيْن لا يتميزان من حيث الكيان الإنسانى للإنسان .

ولكن كُلًّا منهما جِنْس يختلف فى التركيب (الفسيولوجى) ، مما (ينوِّع) الوظيفة الحياتية . يقول (الكسيس كاريل) فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول) (ص ١١٤) :

[إن (الاختلافات) بيْن الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص لِلأعضاء التناسلية من وجود الرَّحم ، والحمل أو من طريقة التعليم .. إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهميّة من ذلك ...، إنها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله

(١) آل عمران : ١٩٥ .

بمواد كيماويّة ، محدّدة يفرزها المبيض ...، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهريّة بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان (تعليماً واحداً) ...، وأن يُمْنحا سلطاتٍ واحدة ، ومسئولياتٍ متشابهة ..

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكُلُّ خليّةٍ من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ، وفوق كل شيء بالنسبة (لجهازها العصبى) ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة لِلِّين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثَمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى .

فعلى النساء أن ينمين أهليتهُنَّ تبعاً لطبيعتهنَّ دون أن يحاولْن تقليد الذكور ، فإن (دَوْرهُنَّ) فى تقدُّم الحضارة (أسْمى) من دور الرجال ، فيجب عليْهن ألّا يتخلّين عن (وظائِفِهِنَّ) المحددة] .

ويقول فى الصفحة (١١٦ـ١١٧) :

[وعلى أى حال يبدو أن النساء ـ من بيْن الثدييّات ـ هُنَّ فقط اللائى يصلْن إلى نمُوِّهِنَّ الكامل بعد حمْلٍ أو اثنين ، كما أن النساء اللائى ـ لم يلدْن لسْنَ (متزنات) كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنَّهُنَّ يُصْبِحْنَ أكثر عَصَبِيَّةً مِنهُنَّ ...، صفوة القوْل أن وجود الجنين الذى تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صِغرها ، ولأنها جزئياً من أنسجة زوجها ، يحدث أثراً كبيراً فى المرأة .

إن أهميَّة وظيفة الحمل والوضْع بالنسبة للأم لم تُفهم حتى الآن بدرجةٍ كافية ، مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نموِّ المرأة ، ومن ثَمَّ فمن سخف الرأى أن نَجْعل المرأة تتنكَّر للأمومة !!!؟ (وظيفتها الحياتية الاجتماعية .. الأساسية ..) .

ولذا يجب ألّا تُلَقَّن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تُبَثَّ فى نفسها المطامع التى يتلقّاها الفتيان وتبث فيهم ؛

يجب أن يبذل المربّون اهتماماً شديداً للخصائص العضويّة والعقلية فى الذَّكر والأُنثى ، كذا لوظائفهما الطبيعية ، فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسيْن ،

ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين] .

وفى الصفحة (٣٦٨) من نَفْس الكتاب نزداد تلاقياً مع المؤلف العالم ، والبحاثة الدارس ، (ألكسيس كاريل) ، بحيْث يُوَفِّر علينا كثيراً من مشاق التطويل والإعادة ، وعلى القارىء الدَّوْر والمحاورة ، فيقول :

[أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفةٍ عامة على أيّة دراسةٍ مستفيضةٍ للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟!! .

يجب أن تُعاد للمرأة (وظيفتها الطبيعية) التى لا تشتمل على الحمل فقط ، بل أيضاً على رعاية صغارها] .

ويهمُّنا من الآية الثانية : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا ...** ﴾ **الآية** ـ مع اهتمامنا بها الأصليِّ والعام ـ القواعد فى الصلات الإنسانية التى تنتظم علاقة الذكر بالأنثى ، وبالعكس ، فى إطار الزوجية ، والتى تَطّردُ فى ثمرات هذه العلاقة ...، فى الأجيال ...

فحين (ينتظم) اللقاء ، فى رباط الزواج المقدس وفْق الثوابت السابقة ، تنشأ الأسْرة الصالحة ، وتنمو الخليَّة السليمة .

فـ (السَّكنُ) و (المودةُ) و (الرحمةُ) هى عوامل تعمّق الجذور وانتشار الأغصان ، ونشوء الزهر ونضوج الثَّمر .